حوار ومناصحة

بقلم الأستاذ: فاضل الرحموني

الحمد لله والصلاة والسلام على من لا نبي بعده..

أما بعد فإنه ما من شك أن الدعوة السلفية قد عززت دور العلم الشرعي في النصف الأخير من هذا القرن، وأعادت الاعتبار إلى المصادر الأصلية للتلقي، وحاربت الشرك في النسك ومظاهره، وأقامت النكير على البدع والخرافات، ولكن هذه الدعوة بدأ يدخل فيها بعض المنتفعين فركبوا موجتها وبدأوا باسمها الترويج للأنظمة الفاسدة الظالمة باعتبارها أنظمة شرعية وأن الواجب طاعتها والدخول تحت رايتها، وهكذا بدأنا نجد في الخطاب السلفي الجديد حملة على من يكفر الحكام واتهامهم بشتى التهم، هذا بالإضافة إلى الحملة الشديدة على التجمع والتنظيم وتسميته بالتحزب البدعي للباطل، فكثر الحديث في ذلك بصورة واضحة في الأشرطة والمحاضرات والمجلات والكتب، وبدأوا يتهمون من لا يقول بأقوال بعض المشايخ المعاصرين أنه ليس سلفياً ولو كان ما يقوله مستمداً من الكتاب والسنة.

ومن الأمثلة التي سأتناولها ما ورد في بعض المقالات التي جاءت في العدد ١٦-١٦ من مجلة الهدي النبوي التي تصدرها الدار السلفية بمانشستر.. يقول عبد الحق التركماني في استعراضه لكتاب "قواعد في التعامل مع العلماء": ‹‹ولا يخفى أن الدعوة السلفية دعوة علمية قيامها بالعلم والعلماء، وبجهودهم ثبت أمرها وعظم خيرها واستوت على سوقها، أغاظ ذلك المبتدعة والحزبيين، وأجمعوا أمرهم على مناوأتها بكل سبيل، واتفق رأيهم على أن سلب الثقة بالعلماء من قلوب أتباع هذه الدعوة أمضى سلاح لتخريبها، لهذا تجدهم يطعنون فيهم ويجرؤون الناس على الطعن فيهم ويصورون فتاواهم الرشيدة القائمة على اعتبار المصالح الشرعية شذوذاً عن المنهج الحق، بل يعتبرونها عمالة للحكام وبيعاً للدين، فالله حسبهم وإليه منقلبهم››.. وهو يعيد ذلك إلى: ‹‹أن من الناس من يطالب العلماء بعمل من الأعمال هم عنه ممتنعون، وما امتناعهم عنه إلا النظر في مآلات الأمور وعواقبها، إذ بعض المصالح قد يمتنع منها لما تؤدي إليه في المآل إلى المفاسد العظيمة››، وفي ذلك إشارة إلى امتناع هؤلاء العلماء عن إظهار كفر الحكام وظلمهم وفسقهم، وهو في ذلك يتفق مع ما يقوله الشيخ ناصر الدين الألباني: ‹‹هبوا أن هؤلاء الحكام كفار ردة وهبوا أيضاً أن هناك حاكماً أعلى من هؤلاء، فالواجب والحالة هذه أن يطبق هذا الحاكم الأعلى فيهم الحد! ولكن ماذا تستفيدون أنتم من الناحية العملية إذا سلمنا ـ جدلاً ـ أن هؤلاء الحكام كفار كفر ردة، ماذا يمكن أن تصنعوا وتفعلوا››[1]. ثم يقول: ‹‹إذا أردنا أن نقيم حكم الله في الأرض ـ حقاً لا

---

[1] التحذير من فتنة التكفير ص ٧٣.

ادعاءً_ فهل نبدأ بتكفير الحكام ونحن لا نستطيع مواجهتهم فضلاً عن أن نقاتلهم؟ أم نبدأ _وجوباً_ بما بدأ به الرسول عليه الصلاة والسلام؟ لا شك أن الجواب (لقد كان لكم في سول الله أسوة حسنة)»[١].

هذا الدفاع عن العلماء واضح سببه، وهو كما يبدو من كلام الكاتب التركماني وكلام الشيخ الألباني فحواه: يا أيها الناس.. يا من ترون كفراً بواحاً في كل أرض المسلمين.. إنكم لا تستطيعون مواجهة الباطل، ذلك أن الباطل يملك من القوة ما لا تملكون، وقدرته على البطش غير محدودة، فليس لكم إلا التسبيح بحمد الحكام، وتأليف الكتب وإهدائها لهم، خاصة إذا كانت متعلقة بالسيرة[٢]، ليس ذلك فحسب بل صد كل من يحاول أن يقيم دولة الإسلام من جديد، ورمية بالتحزب والبدعة ومخالفة هدي النبي ﷺ، وبعد ذلك كله يطالبنا الإخوة بأن لا نحيد عن هؤلاء العلماء قيد أنملة..!

لنقرأ ما كتبه الأخ مصعب السامرائي ونتفكر، يقول: « تئن الدعوة فيما تئن منه في هذه الفترة من تحولها من دعوة خير وهداية وإصلاح إلى دعوة قتل وسفك دماء وخراب في أمة الإسلام، ومن دعوة توحيد وسنة وتقوى إلى دعوة سياسية للإطاحة بحاكم أو الفوز بانتخابات أو للسيطرة على مؤسسة، ومن دعوة إخاء ومودة وحب للمسلمين إلى دعوة تحزب خبيث وسرية باطنية وتآمرات ليل، كأنها عصابات تسرق وتنهب، وكي تتم لمن أراد هذا بغيته كان لا بد من الإطاحة بالعلماء لأنهم مراجع علمية يرجع إليها أهل الدين والتقوى، فلا بد من عزلهم عن القيادة الفكرية، واتبعوا في ذلك طرقاً منها رميهم بالعمالة للحاكم وما أسهل القذف لمن لا يتقي رباً ولا يرقب إلّاً ولا ذمة، ومنها حصر أتباعهم في العادات المجردة كالحيض والنفاس كما صرحوا، ومنها رميهم بالجهل بالوقائع، وفي هذا الرمي تبجح متهاوٍ بالعلم بها وبأسرارها»[٣].

وكلام الأخ مصعب فيه الكثير من المغالطات والاتهام بالباطل والخلط بين الأمور.. فهو يفصل بين أن تكون الدعوة دعوة توحيد وسنة وبين أن تكون دعوة سياسية، في حين أن الإسلام توحيد وسنة وسياسة، بل السياسة جزء من التوحيد إذ الحكم بما أمر الله بما يتعلق بشؤون الأمة، وهذا واضح بيّن، ولا يخفى عليه كذلك أن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله قامت على جهودها دولة تنتسب إليها الآن الدولة (السعودية) التي يدافع عنها هؤلاء العلماء!! الآن، ويريدون من الناس أن لا يتحدثوا أبداً عن الدمار الذي ألحقته هذه الدولة الخبيثة بالمسلمين، وأن يسكتوا عن جرمهم في مطاردة الدعاة

---

[١] السابق.

[٢] كما فعل محمد شقره في أهدائه لمؤلف السيرة النبوية لعدو الله حسين بن طلال ملك الأردن.

[٣] الهدي النبوي العدد ١٥-١٦ ص٣.

والعلماء كالشيخين سفر وسلمان ـفك الله أسرهما ـ، ثم يعرج الأخ السامرائي على التحزب ـوهذه التي يدندن حولها السلفيون دائماً ـ رغم أنهم حزب له موارده وعلماؤه وكتبه ونشراته ومقراته، فحزب السلف موجود حيثما وجد السفليون، لهم حلقاتهم وندواتهم ومحاضراتهم.. فهم في الكويت حزب وفي دولة الإمارات حزب تحت اسم (الجمعية الخيرية) وكل من يعرف واقع الحركة الإسلامية يعرف أن هذه جمعية سلف، وتلك الجمعية جمعية إخوان.. وهكذا، والمجلة نفسها التي تضمنت هذه المقالات تصدر عن الدار السلفية التي هي في واقعها مقر للحركة السلفية في شمال بريطانيا، فلماذا هذه الحملة على التحزب عند الغير ما دام أنه هو واقع الجميع..؟! سمه ما شئت حزباً أو جماعة أو حركة أو جهة..

وأما موضوع علماء الحيض والنفاس فهو موضوع واضح لا غبار عليه إذ أنك لو تتبعت أغلب الفتاوى سواء المذاعة أو المنشورة لرأيتها في هذا الباب، ولكن الأعجب أن المراجع الثلاثة عند هؤلاء السلفيين (ابن باز- ابن عثيمين- الألباني) غير متفقين في هذا الباب من الفقه، ولكنهم على نمط واحد في فقه الحكم على حكام بلاد المسلمين وأن هؤلاء الحكام كفرهم كفر عملي لا دليل لدينا على جحودهم! رغم أن الشيخ ابن عثيمين قال: «كلام الشيخ الألباني هذا جيد جداً ـفيما يتعلق بكفر الحاكم ـ لكنا قد نخالفه في مسألة أن لا يحكم بكفرهم إلا إذا اعتقدوا حلّ ذلك، هذه المسألة تحتاج إلى نظر لأننا نقول: من حكم بحكم الله وهو يعتقد أن حكم غير الله أولى فهو كافر وإن حكم بحكم الله، كفره كفر عقيدة لكن كلامنا على العمل، وفي ظني أنه لا يمكن لأحد أن يطبق قانوناً مخالفاً للشرع يحكم فيه فيه عباد الله إلا وهو يستحله ويعتقد أنه خير من القانون الشرعي، فهو كافر، هذا هو الظاهر وإلا فما الذي حمله على ذلك..؟!»[(١)].

فهذا كلام ابن عثيمين وهو واضح جداً في مخالفته لكلام الشيخ الألباني ولكن (الأثري!!) حاول جهده في لي المعاني والتلاعب بالألفاظ مثل (قد- وفي ظنّي) وفسر تحوط الشيخ الناتج عن أدبه في مخاطبة الألباني إلى شك في الراوي، رغم أن هذه القضية من الأهمية بمكان لا يصلح معها الظن، إذ هي من قضايا العقيدة واعتقادها يترتب عليه الكثير من الأحكام..

ويتوافق مع الأخ مصعب الأخ أبو بكر البغدادي في مقال بنفس العدد (وكأن العدد خصص بذلك) يقول: «من المعلوم الذي لا مرية فيه أن من يخالف العلماء الأعلام القدوة فيما اجتهدوا فيه في هذا الباب فإن يفرق الكلمة، بغض النظر عن دقة وصحة ما ذهب إليه، وبالتالي فإنه لا يحقق مقصوده

---

(١) التحذير من فتنة التكفير ص٧٣.

من تحصيل المصالح، بل يكون من الفساد في الفرقة ما هو أعظم مما قصد المخالفون منعه من الفساد بحسب ظنهم ـعلى فرض صحة هذا الظنـ»[١].

والعجيب أن هؤلاء الإخوة حين يذكرون العلماء (الأئمة القدوة) لا يذكرون إلا المشايخ الثلاثة.. وهذا من أعجب ما جاء به متأخروا السلفية، ذلك أن السلفية تقوم أول ما تقوم على نبذ التقليد وضد تقديس الأشخاص، بل إنما دعوة للبحث واتباع الدليل، لكنها تحولت ولدوافع سياسية إلى حركة تقليد مذهبي جديد (!!)، فبدل أن نقلد الأئمة الأربعة رحمهم الله الذين ختم لهم بالخير صارت إلى تقليد من لا يؤمن عليه الفتنة من الأئمة الثلاثة الجدد أو الأربعة إذا أضفنا إليهم الشيخ الجبرين..

وزعموا ـوهو من بدعهم المعاصرةـ أن من خالف هؤلاء العلماء هو مبتدع، رغم أنهم كما أسلفنا مختلفون في الكثير من الأحكام حتى في مسائل الصلاة، فالذي يقرأ صفة صلاة النبي ﷺ للألباني يجده في كثير من الأبواب يخالف صفة الصلاة لابن باز وابن عثيمين، وهو خلاف لا يناقض مع المنهج السلفي، وفي حين أن الألباني يرى جواز كشف الوجه للمرأة يحرم كشفه ابن باز وابن عثيمين، وبينما يصرّ الألباني على عدم جواز صلاة التراويح أكثر من إحدى عشرة ركعة يجوز ابن باز وابن عثيمين صلاتها عشرين ركعة، واستقصاء الخلاف يطول، والشاهد أن من تطالب الأمة باتباعهم غير متفقين في المسائل التي لا تخاص قضايا الأمة، فكيف نفعل..؟ أنتبع من شئنا منهم على رأي المقلدة ونحتج بالحديث الموضوع «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» أم ماذا يفعل الناس حسب سلفيتكم الجديدة..؟! أما السلفية بأصلها فالجواب فيها معروف.

إنّ الذي لا مراء فيه أن العلماء ورثة الأنبياء، وأنه لا بدّ من الرجوع إليهم فيما أشكل على الناس فهمه، وأنه من الواجب على هؤلاء العلماء أن يكون علمهم في خدمة هذا الدين ومن أجل إصلاح الأمة، لا خدمة حكام الجور والردة الذين ابتلينا بهم، ومن المعلوم أن العالم إذا أخطأ لا يجب اتباعه على خطئه، ولكن يجب على العالم أن يبين حكم الله في هؤلاء الحكام، ذلك أن أول شرط من شروط التغيير في أية حالة إدراك الواقع ووجود هم التغيير فيه، ثم يكون الإعداد للتغيير، وهي التي تفرض المواجهة والتحدي.. أما تخدير الناس بأنه ليس في الإمكان أحسن مما كان، وأن علينا الالتفات إلى تحصيل العلم فقط وترك أمر الحكام جانباً فهذه الدعوة في الحقيقة لا تخدم الدين بل تخدم هؤلاء الحكام، وقد أدرك الحكام هذا فقاموا بدعم هذه الآراء وتوسيد الأمر إلى الداعين إليها، فنشروا الكتب وبثوها في المشرق والمغرب..

---

[١] الهدي النبوي العدد ١٥-١٦ ص ٢٤.

إنا دعوة لكل هؤلاء الإخوة أن يدركوا حجم الجريمة التي تمارس في حق الأمة بدعوتها إلى إغضاء الطرف عن كفر هؤلاء الحكام، وعدم الدعوة إلى تغيير هذا المنكر الأكبر، وإعادة حكم الله في الأرض ليسود العدل والأمن.. (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله).